دور الاستشراق الفرنسي في استعمار فرنسا للجزائر

أ / محمد جعيجع

جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة

هوية الاستشراق:

يعد المصطلح قوام الحدث الفكري الدراسي، بتمثله الإبستيمي، وعليه ينشأ التواضع عند غلبة الاستعمال حيال معنى من المعاني، والإعفاء من إبراز حدِّ الاصطلاح أو الزهد فيه، يضيع الحد المطلوب من فهم المقصود لاقتناصه بمسالك النظر في العلم الذي يحاول الخوض فيه.وذووا الأعراف المنشئون لاصطلاحاتهم يودعون مقاصدهم في عباراتهم يخرجها البيان والنظر في مركباتها واشتقاقاتها من حيِّز الإشكال والخصومة إلى حيِّز التجلي والوضوح.فيفهمها المبتدئون ويحسنها المنتهون.

فتعريف المصطلح هو بيان عناصره الأساسية التي تتحدد من خلالها ملامح موضوعه وخصائصه المنهجية، وعلى غرارها يكون التأسيس لبناء موقف إبستيمي نحو الموضوع. ومن هنا تأتي صعوبة التعريف نظرا للطبيعة المؤقتة في كثير من الموضوعات؛ لأنه كثيرا ما يعاد النظر في تعريف الدلالة الاصطلاحية لموضوع ما وتكون المفاهيم العرفية الناشئة مفتوحة على الأقل في بداية تكوينها

ويكون تنقيحها وتحويرها بصورة مستمرة، وقد تتسع حدود الأشياء أو تضيق أحيانا أخرى بمرور الزمان وتغيير الأحوال، وتحدد المعارف، وغالبا ما تغاير مآلات الأشياء والقضايا ما كان مسلَّما به طبقا لاتساع وضيق وتحديد معارفنا ولأن تعريف الاصطلاح في أي فن؛ هو تحديد لصفاته وعناصره الأساسية تحديدا ثابتا لا زيادة فيه ولا نقصان؛ لأن دلالة الاصطلاح قوامها عنصران أساسيان هما: "**جنس**" موضوعه الذي ينتمي إليه في سياقه المنهجي، و"**فصله**" الذي يميزه عما عداه من سائر الموضوعات محل البحث التي تشترك معه في ذلك الجنس، وعليه فإن إخفاق أنساق الفكر الإسلامي في ضبط مصطلح الاستشراق أفضى إلى اختلال في قراءة الفكر الإسلامي للظاهرة الاستشراقية وانخراط مواقفه في ثلاثة اتجاهات؛ بين الانخراط المطلق إلى حد غياب الأنا، والرفض المطلق للتعاطي الإيجابي مع الظاهرة، وإلى الموقف الوسط بينهما في درجات متفاوتة بين الإفراط والتفريط بين الانخراط والرفض، مما غيب ذلك عن الفكر الإسلامي اتخاذ مواقف علمية رشيدة حقيق بها احتواء الظاهرة بمنهج يتسق ومحددات الصراع الحضاري بين الأنا والآخر. واستقراء البواعث الحقيقية التي توجه الظاهرة في سياقها التاريخي، وبيان دوافعها الأساسية.

لقد خاض الفكر الإسلامي الحديث معارك شتى لاستبانة فحوى مصطلح الاستشراق وكشف هويته الحقيقية؛ من خلال تقصي المقاصد الحقيقية لدراساته المختلفة للمدونة التراثية الإسلامية وقضايا المسلمين التاريخية والاجتماعية.

ولقد آلت تلك الجهود إلى اتجاهات متعددة في إيضاح مصطلح الاستشراق وإبراز حدِّه تبعا لمواقف أصحابها من الظاهرة الاستشراقية. ففي الوقت الذي يذهب بعضهم إلى اعتبار الاستشراق ميدانا علميا من ميادين الدراسة والبحث

يتجه آخرون إلى اعتقادهم أنه مؤسسة غربية ذات أهداف متعددة، في حين يرى اتجاه آخر أن الاستشراق ظاهرة طبيعية تولدت عن حركة الصراع بين الشرق والغرب، أو في فهم أضيق نطاقا، بين الإسلام والمسيحية. وجماع هذه الاتجاهات تندرج في قراءة الظاهرة الاستشراقية من زاويتين.

فالذي رأى الاستشراق من زاوية معرفية اعتقد الاستشراق هو معرفة الغربيين بالعالم الشرقي، أو هو اتجاه الغربيين للبحث أو التخصص في الشرق ويشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية وتجمع بين الانقطاع إلى درس بعض ما يخص شعوب الشرق من علوم وفنون وآداب وديانات وتاريخ مثل الهند وفارس والصين واليابان، والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق[1].

وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية، وهو أيضا تعاطي الحضارات القديمة، أو هو تقدير شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى[2].

ومن كانت قراءته للظاهرة الاستشراقية من زاوية سياسية اعتبر أن الاستشراق هو جهود الغربيين لمعرفة الشرق بإصدار تقريرات حوله ووصفه وفهمه بأسلوب متميز للسيطرة عليه والاستقرار فيه وحكمه؛ أي ظاهرة ثقافية

---

1 – د.عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة. دار النهضة العربية.القاهرة 1980.ص9

2 – من محاضرة ألقاها المستشرق ميكائيل أنجلو جويدي في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة تحت عنوان (علم الاستشراق وتاريخ العمران) نشرتها مجلة الزهراء في عددها الصادر في ربيع الأول 1347هـ.

نتجت أساسا عن توسع آفاق المعرفة الأوربية ومحاولة العقل الغربي فهم الآخر والتعامل معه أملا في احتوائه وتوجيهه ثم الهيمنة عليه[1]، فهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه[2].

بيد أن ما ينبغي الإشارة إليه هنا هو الخروج عن إطار الدلالة الجغرافية للمصطلح؛ حيث لم يعد مصطلح الشرق قابعا في حيزها؛ لأن الاستشراق أخذ بعدا ودلالة ثقافتين حدث بينهما تواصل تاريخي أعقبه تصادم قوامه دلالة أيديولوجية. أضفت على جدلية الدرس النقدي للخطاب الاستشراقي ديمومة حداثية صاغها مشهد الصراع السياسي المعاصر، وحركة التحرر التي غمرت شعوب العالم الثالث.

وعلى سبيل المثال أثناء حرب التحرير الجزائرية، أثر موضوع الاستشراق بشكل خاص، وكان مرتبطا بالضرورة بالظاهرة الاستعمارية؛ لأن عددا كبيرا من المستشرقين كان مرتبطا بالمجتمعات الاستعمارية وإدارتها وقراراتها، ارتباطا ينكشف في تجليات الأداء الوظيفي للمستشرقين.

---

1 - إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ط2، 1984، ص 39 ــ د ، شكرى النجار: لم الاهتمام بالاستشراق. مجلة الفكر العربي. عدد31. 1983.ص:71.

2 - محمد أركون في حوار أجراه معه الدكتور عبد الغني أبو العزم. مجلة الفكر العربي. عدد31. 1983. معهد الإنماء العربي للعلوم الإنسانية .بيروت. ص: 315.

العلاقة الجدلية بين الاستشراق والاستعمار:

كثير من الدارسين العرب والمسلمين يغيب عن أذهانهم تلك العلاقة الجدلية بين الاستشراق والمستشرقين وبين الاستعمار الأوربي خاصة والغربي عامة لبعض البلدان العربية والإسلامية في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وجنوب شرق آسيا غيابا كليا أو جزئيا وكلا الموقفين مؤسس على وهم في فهم هوية الاستشراق وبواعثه الحقيقة، كمنظومة استراتيجية في الصراع التاريخي الحضاري بين أيديولوجيات متزاحمة بشريا وجغرافيا، كما نوهنا سابقا.

لقد وجد الغربيون أنفسهم إثر الهزائم التي منوا بها عقب فلول الغزو الصليبي على بلاد الإسلام في غضون القرن الحادي عشر الميلادي؛ مدعوون إلى تغيير استراتيجيتهم في الصراع الحضاري بينهم وبين الشعوب التي اكتسحها الإسلام؛ فلم ييأس هؤلاء من العودة إلى احتلال بلاد العرب والمسلمين. بيد أنهم وجدوا أنفسهم في حاجة ماسة إلى معرفة وفهم عادات وتقاليد هذه الشعوب[1]؛ التي أثارت شره العسكروت واللاهوت الغربيين إلى بسط السيطرة السياسية والاستيلاء العسكري، فاتجهوا إلى دراسة بلاد العرب والمسلمين وشعوبها في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات، ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها[2].

---

1 - قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. دار الرفاعي للطباعة والنشر والتوزيع. الرياض.ط1 .1988.ص: 23.

2 - مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ماهم وما عليهم.دار الوراق. المكتب الإسلامي. بيروت.ط2 . 2001. ص:22.

وهذا جلي في دعوة القديس لويس ملك فرنسا وقائد الحملة الثامنة على مصر التي انتهت بهزيمته ووقوعه في الأسر، وبعدما قدم فدية مالية كبيرة لفك أسره وعاد إلى فرنسا؛ دعا إلى ضرورة تكتل جهود الأوروبيين لتشويه الإسلام وإفساد عقيدة المسلمين التي هي سر قوتهم وتفوقهم، وأنه لا غنى للأوروبيين عن هذا الغزو الفكري إذا ما أرادوا التغلب على المسلمين الذين لا سبيل إلى التغلب عليهم عن طريق القوة العسكرية.

ولا غرو أن نجد جمهور المستشرقين يضطلع بهذه المهمة؛ إذ شكلوا كتائب استطلاعية لفلول الاستعمار الغربي (الأوروبي) وكاسحات للعقبات الأيديولوجية والفكرية في طريق السيطرة الغربية وتذويب الحواجز النفسية بين الغازي والمغزو، إثر إدراك بعض قادة الغرب لهذا الدور الإيجابي للاستشراق والمستشرقين في خدمة ألوان الاستعمار والإمبريالية ، كما صرح بذلك وزير خارجية بريطانيا سابقا ((اللورد بلفور)) قائلا: ((إن المستشرقين والمبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة، وعضدها في كثير من الأمور المهمة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات؛ أن تذلل كثيرا من العقبات، ولذلك فإنا في حاجة إلى لجنة دائمة تعمل لما فيه صالح هؤلاء))[1].

لأجل ذلك اندفع كثير من قادة الحكومات الاستعمارية الأوربية إلى تشجيع الاستشراق بصور شتى، وأولته دولهم عنايتها وحثت جامعاتها على دراسة قضايا الإسلام والمسلمين، ولهذا نجد المستشرق لـــويس ((ماتيو لانجليز))

---

1 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها. دار القلم . بيروت.ط2. 1980. ص:49.

(1763 _ 1824) يوجه نصيحة أو التماسا من التجمع الوطني بإنشاء ثلاثة كراسي للغات العربية والفارسية والتركية كأبزر الألسن التي تستغرق ثقافات المسلمين ومعارفهم الدينية والاجتماعية والتاريخية منوها بالفوائد العملية التي تعود بها معرفة اللغات الشرقية الحية في مجال التجارة والسياسة الفرنسيتين. كما نصح بتأسيس مدارس خاصة لدراستها، وبإلحاقها بجانب المكتبة الوطنية لما للمخطوطات والكتب من أهمية للدرس، وقد أفلح لويس ماتيو بإقناع التجمع للتصويت في 30مارس1795بإنشاء كرسي للغة والآداب العربية في باريس إلى جانب كرسي آخر للتركية والكرواتية وكرسي للفارسية والمالوية، وقد عين أنطوان إسطاف(1758_1838) سيلفستر دي ساسي الابن الثاني لليهودي محرر العقود أبراهام جاك سيلفستر (ت1765) فتولى منصب كأول معلم للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية السالفة الذكر والذي صار مديرا لها عام 1824 وقد شغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية منذ 1806م واستمر عمله بالوزارة ست سنوات بدون مقابل[1].

وقد شكلت مدرسة دي ساسي والتي غدت تعرف باسمه، المخبر الرئيس لإمداد الحكومة الاستعمارية الأوروبية سنوات عديدة مترجمين وأدلة للنفوذ الفرنسيفي البلاد الشرقية [2]. وقد عمل سيلفستر دي ساسي مترجما لنشرات الجيش والقائد نابليون، وكان هو المرجع الأساس الذي يستشار بانتظام حول جميع المسائل والقضايا المتعلقة بالشرق من قبل وزير الخارجية. ومن قبل وزير

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر القافي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1998 .جزء:6. ص:9.

2 - أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب . دار الاعتصام. القاهرة.ص: 8/7.

الحربية[1]. وعلى غرار ذلك غدا الاستشراق مشروعا اكتشافيا للبلاد العربية الإسلامية، وسائله علمية، وطابعه رومانسي، ومراميه استعمارية، وتعبيراته ثقافية[2].

وقد لعب الاستشراق الفرنسي دورا كبيرا في الاستعمار الفرنسي للجزائر إذ يتكشف لنا في اتجاهين: فني رومانسي، وفكري دراسي، مؤازرين للعسكروت الفرنسي وفلوله الغازية للجزائر.

الحركة الاستشراقية الفنية الرومانسية:

إن البرجوازية الفرنسية، وجدت نفسها في موقع حرج، وفي وضع داخلي تحسد عليه، إثر انهيار طموحاتها النابوليونية في الشرق (مصر، وفلسطين) فاتجهت نحو الجزائر ممثلة في عسكروتها للتعويض عن خسائرها وهزائمها تلك ولتبحث لنفسها عن ((الأنا القومي)) في المواضيع الجزائرية، وتتحسس مجددا عن الافتخار الشوفيني، عن طريق توفير محفزات جديدة، وأحاسيس جديدة للجبروت القومي والمنفعة المادية في آن واحد.

ولقد رافق الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م عدد من المستشرقين الفنانين والرسامين المغمورين والموهوبين؛ جريا على تقليد حملة نابوليون على

---

1 - إدوارد سعيد: الاستشراق. ترجمة: كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت.ط2 . 1984. ص:146.

2 - عفيف البهنسي: الفن والاستشراق. دار الرائد العربي.بيروت. ط2. 1983.ص:47 وما بعدها.

مصر، وقد شكل ازدياد اهتمام البرجوازية الفرنسية بمصالحها خارج نطاق الأرض الفرنسية؛ دافعا قويا للحركة الاستشراقية الفنية الرومانسية باتجاه ازدياد الطلب على تصوير المشاهد الجزائرية، وغدت الجزائر بمثابة ((موضة)) للعسكريين وأصحاب المصارف والبرجوازيين الصغار.

وعلى غرار ذلك شكلت الحركة الاستشراقية الفنية الرومانسية، القناة الإعلامية الاستعمارية، التي من خلالها يتم الإشهار بعروض مغرية عن جغرافية الجزائر بخصائصها الطبيعية والبشرية، لتحريك الرغبة في الإقامة في أرجاء هذه الجغرافية الواسعة، وتأسيس الاقتناع لدى الجماهير الفرنسية بضرورة السيطرة على الجزائر إلى جوار المبررات التاريخية الأخرى.

ومن أبرز تجليات الأداء الوظيفي للاستراق الفني للحركة الرومانسية الفرنسية إزاء الحملة الفرنسية على الجزائر، في العمل الفني في أدائه الإغرائي والعمل الفني في أدائه السيكولوجي الإقناعي ((تشكيل إقناع)). وذلك بنقل مشاهد مثيرة عن البيئة الطبيعية والاجتماعية البشرية، وتمثيل المعارك الحربية وساحات الوغى؛ إلى الأوساط الغربية الفرنسية والأوربية عبر معارض متكررة.

أولا: الاستشراق الفني الإقناعي(السيكولوجي):

كثير من المؤرخين يشيرون إلى أنه قد التحق بالجيش الفرنسي منذ الأيام الأولى للحملة؛ طائفة من الفنانين الرسامين، وظفها الغزاة لتسخيرهم في خدمة أهداف القادة؛ إذ كان يراد منهم تخليد الانتصارات والمعارك الفرنسية للارتقاء بها نحو التاريخية، والتخليد((للمآثر)) التي اجترحها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري، ورافق كل من [إيزابيه، وتونيي] الجيش تنفيذا لأوامر وزارة

الأسطول البحري، ثم انضم إليهما لاحقا كل من [غيرين، وواشمت، وفيليبوتو ولانغلوا، ودي بولفيل] وطرحت أمامهم مهمة واضحة هي أن يكونوا بمثابة ((المؤرخين)) للحملة، وتصوير مشاهد المعارك الرئيسية.

بيد أن أعمال هؤلاء الفنانين انحصرت في تكرار صور ((المعارك)) و((الحروب)) على غرار "موتيف" الأمبراطورية الأولى بعد فشل حملة بونابارت التي شخصها كل من [انطوان غروجيرووديه، غيرين، وك.فرنيه، ودي توبيني وفرانك]وغيرهم، من حيث بناء التركيب العضوي العام للوحة: الجزء الأمامي يمثل مسرحا للمعارك، والجزء الخلفي يمثل الطبيعة الجزائرية المحلية، ويبدو في كل المعارك انتصار الجندي الفرنسي دائما؛ أي تصوير واقع الحرب الفرنسية ــ الجزائرية كما يرتئيها القائمون على سير المعارك.

ولا غرو أن المخيلة لدى هؤلاء الرسامين؛ كانت تعني تشويه الحقيقة، بما يناقض الواقع، وكانت مهمة معظم هؤلاء، تقوم على الدعاية للحملة الجزائرية على المستوى السيكولوجي في صفوف الشعب الفرنسي عامة، والشرائح المترددة في جدوى الحملة على الجزائر بالنسبة للوضع في فرنسا كلها.

ولقد عرضت لوحات في هذا الاتجاه في صالون العرض عام1831م، التي من مقاصدها تزوير المعارك التي كان يخوضها جيشهم ضد الشعب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر، كما فعل: أنغلوا في لوحته((معركة سيد فريخ)) وجيبير في لوحته((قصف الجزائر))، وغارنيرييه وكرييين لإي لوحتيهما ((معركة نافارين))؛ التي تصور معركة فرنسا مع الأمبراطورية العثمانية، فكانت مخيلة هؤلاء تستخدم دائما ضد الحقيقة في تصوير المعارك وتصوير الجندي الفرنسي منتصرا دائما، والجزائري في صورة المهزوم.

ثانيا: الاستشراق الفني الإغرائي:

فقد قام هؤلاء الفنانون بعرض صور لمناطق شتى للطبيعة الجزائرية، والحياة الاجتماعية، تم التركيز فيها على المرأة الجزائرية؛ مثل ما فعل دي لاكرو في سعيه إلى استحداث عقيدة فنية جديدة، في ألواح ذات ألوان دافئة في موضوعها تتواءم مع المهمة المتعلقة بكشف الخصائص العقلية والنفسية والاجتماعية للبنى التحتية للشعب الجزائري خاصة أو الشعوب الشرقية عامة.

ولا غرو أن تمثله هذا النسق جلي في لوحاته ضمنها مشاهد لحفلات الزواج في المجتمع الجزائري التي كان حضور عنصر المرأة بارزا فيها[1].

لقد انتقل هذا المستشرق الفني الرومانسي من الجو الداكن القاتم في باريس إلى جو الجزائر، حيث نور الشمس يملأ السهول والصحاري، وحيث الحياة الهادئة وحيث الفرح والنور وحيث الجمال الطبيعي والألوان الزاهية كما وصف رحلته كل من"جوبان" و "الازار"، ويعد ديلاكروا من أوائل المستشرقين الفنانين من الحركة الرومانسية الذين رافقوا الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م. وقد كانت رسائله إلى أصدقائه والأهالي بفرنسا مثار إغراء للهجرة الاستيطانية وخاصة في رسائله إلى كل من ((بييره)) و((غولير ماردە))، والتي استعرض فيها وقفاته بوهران ومدينة الجزائر في طريقه إلى طولون[2].

---

1 - لقد فصل رحلة ديلاكروا إلى شمال أفريقيا ((رونيه هويغ))
Delacroix. pp :256/300. R . Huyghe :

2 - زينات بيطار: الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي. ص:226. عالم المعرفةز الكويت عدد 157. يناير 1992.

بيد أن لوحات دي لاكروا شكلت كشفا رائعا بالنسبة للعقلية الإقطاعية الفرنسية اللاهثة عن قضاءات لإشباع رغباتها، حتى غدا حنين بعض الإقطاعيين الذين شعروا بأن الأرض بدأت تميد تحت أقدامهم إزاء التحولات الاجتماعية والسياسية التي تشهدها فرنسا وإثر فشل حملة نابليون بونابرت على مصر في تحقيق حلم الكثير من الفرنسيين، وبدأ هذا الحنين عبر المشاهد المعروضة عن الجزائر وسحرها الأخاذ في المعارض بفرنسا، يتزايد ويتضخم حتى أصبح حاجة ملحة، وخاصة تلك الألواح التي أنجزها في عام 1832، والتي حركت بعض القادة السياسيين والعسكريين وبعض الإقطاعيين، ومطبقات الفلاحين التي تبحث لها عن ربوع، تصوغ لها مكانا في المجتمع الفرنسي، كل ذلك حرك شهية هؤلاء إلى الهجرة الاستيطانية إلى الجزائر، ومارسوا ألوانا من الضغوط على الإدارة الفرنسية لتتجه قراراتها نحو التفكير في الاستقرار بالجزائر، الذي كان مثار جدل حاد في الأوساط السياسية والإدارية الفرنسية.

كما أن لوحات المستشرق الفنان أوغيست روبير[1] شكلت عروضا مغرية لكثير من الإقطاعيين والقادة العسكريين والسياسيين الفرنسيين، إذ أن أوغيست بالرغم من تأثره بسحنة فن "الروكوكو" ذو الملامح الحسية النخبوية؛ فهو يعد أول فنان مستشرق يتناول موضوع "الجواري" الحريم و"العاريات" في تصوير دقيق للخصائص الإثنينية لكل امرأة.

إن الرؤية الشوفينية الحسية لروبير في تركيزه على "العاريات" وهتك أستار النساء العربيات المسلمات المقيمات في خدور العفة والحياء المحرمة على الرجال

---

1 - Delacroix .E. voyage du Maroc. p :24

الغرباء، وكشف هذه الطبيعة البشرية التي تحيط بها القدسية، والسرية والملاكية الخاصة بالمرأة المسلمة"الشرقية والمغربية" التي كانت تشكل عالما مليئا بالأسرار بالنسبة للأوروبي عامة، فكان روبير بهذا الموتيف الجديد في عالم الاستشراق الغني الداعم لإيديولوجيا السياسة والفن من فوق، يريد أن يتغلغل إلى عمق الظاهرة، ويمر بها ليصل إلى الحقيقة، إلى سر الخدر، والبيوت المقفلة من الخارج المفتوحة على إيوان تطل منه السماء من الداخل، والنوافذ المسدودة دائما، في ثقافة المسلم، فأضفى بلوحاته نكهة مقدسة على جسم المرأة العربية المسلمة جذب اهتمام الأوروبيين خاصة إلى هذا الموتيف في لوحة الإنسان العربي"الشرقي- والمغربي".

إن تصوير النساء من أبرز سمات عصر الركوكو، كان من المواضيع التقليدية في البورتريهات الفرنسية، كصور" السلطانات "و" المخطبات "و" الجواري العاريات " التي كانت في جوهرها تمثل روح الطبقة الأرستقراطية الفرنسية، وقد عمل ديلاكرو على تجسيد نزوعها نحو مبدأ المتعة الحسية، فكان يعمل على تصوير حياة البلاط التركي على أنها بؤرة المتعة التي لا تكون إلا شرقية، فيها حيث تقبع المرأة باعتبارها الجزء "الأثير" قدس الأقداس، وهي مركز ضعف الرجل الشرقي، وعليه فقد كان هذا الحيز الداخلي في الحياة الشرقية يشكل عنصرا من عناصر الفضول الرومانسي للاستشراق الفني الفرنسي.

ولقد اعتبر ديلاكوا أن الفرصة الذهبية التي أحرزها لرؤية النساء المسلمات تمت في الجزائر؛ حيث استطاع أن يزور بيت أحد الجزائريين ويصور نساءه داخل البيت، وديلاكروا كان يعتبر أنه لو لم ير النساء الشرقيات حقا فمعنى هذا أنه ما كان ليتصور كليا ماهية الشرق الحقيقي في أكثر عناصره غموضا،

وخفية وسحرا، ولما عاد إلى فرنسا بدأ يركب تلك المشاهد التي التقطها من الواقع الجزائري في لوحته الشهيرة ((نساء الجزائر)) معتمدا على الكثير من الرسوم التمهيدية والتخطيطات التي تظهر داخل البيوت الشرقية بما فيها من زينة ولوازم، وقد اشتملت اللوحة على امرأة مستلقية على السجاد، وحسناوين جالستين في غرفة أمامهما ((النرجيلة))وأباريق القهوة النحاسية، محاولا المزج بين الواقع الجزائري ((الشرقي)) والمرموزات الميتافيزيقية الاستيتيكية ((الميتاستيتيك Méta-esthétique)) الروماني، فاختياره الثلاث نساء مرتبط بتصوره لمفهوم (Gratia) يمثلن آلهات الجمال الثلاث: ((أهليا ــ أفروسينا ــ وتاليا)) كما الأمر بالنسبة للفلسفة الجمالية اليونانية؛ فالثلاث حوريات هن اللائي يمثلن آلهة الجمال.

وقد كتب ديلاكروا بعد أن قام بزيارة البيت الجزائري في يومياته مشيرا إلى هذا التداعي الصوري في مزجه بين صورة المرأة الجزائرية ((الشرقية الرمز)) والصورة القديمة للجمال الأسطوري الذي وضب حياة أرستوقراطية القرون الوسطى. فقال في يومياته: ((هذا رائع ، إنهن كما في عصر هوميروس ، إنني أفضل صورة المرأة هذه على كل ما عاداها))[1].

هكذا بدت المرأة الجزائرية المسلمة الرمز في لوحات ديلاكروا وغيره بإيحاءاتها ودلالاتها على نمط حياة الشرق بوصفه نمط دفء وسكينة الروح المنشودة المفعمة بالأناقة والطاعة المطلقة.

---

1 - زينات بيطار: المرجع السابق. ص:275.

وهكذا لعبت لوحات ورسوم و رسائل هذه الطائفة من الفنانين المستشرقين الفرنسيين والأوربيين، الذين رافقوا الحملة الفرنسية على الجزائر من 1830م [1]؛ دورا بارزا في إثارة البرجوازية الفرنسية بمصالحها خارج نطاق الأرض الفرنسية الذي دفع باتجاه ازدياد الطلب على تصوير المشاهد الجزائرية، وغدت الجزائر بمثابة((موضة)) للعسكريين وأصحاب المصارف والبرجوازيين الصغار[2].

الاستشراق الدراسي:

لعب كثير من المستشرقين الفرنسيين على وجه الخصوص والأوربيين عامة دور الكتائب الاستطلاعية لحركة الأطماع الاستعمارية الفرنسية في الجزائر والشمال الأفريقي على حد سواء. فكان الاستشراق يسبق فلول الاستعمار في أي قطر ومصر، ليصبح طلائع جيشه، وأعين أمنه، التي توفر له المادة الكافية للتشكيك في قيم الشعوب، والسخرية من تقاليدها ويصور العالم العربي والإسلامي بصورة قبيحة، في أخلاقه وعاداته وآرائه، والنيل من حضارة المسلمين والإساءة إلى تراثهم الفكري[3]، وغدا الاستشراق والاستعمار على وفاق تام؛ فالمستشرق المهتم بالشؤون العربية مثله مثل الجندي أو المستخدم

---

1 - نفس المرجع: ص:276.

2 - د. منذر معاليقي: الاستشراق في الميزان المكتب الإسلامي.بيروت.ط1. 1997.

3 - برنار لويس: الإسلام والغرب. ترجمة: قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد. دار الرشيد. بيروتز ط1. 1994.

المدني الإمبريالي، وهؤلاء جميعا لهم غرض مشترك، ألا وهو الاختراق والإخضاع والسيطرة والإفساد[1].

وبحكم هذا الارتباط العضوي بين الاسشراق والاستعمار، فقد أوكلت للمستشرق مهمة جمع المعلومات، وترجمة النصوص، من النص العربي وإليه حسب الحاجة، وتفسير التاريخ والأساليب الحضارية والأديان والعقليات والتقاليد وصياغة علاقة الأسر الحاكمة بالشعوب التي تحكمها، ويقوم المستشرق بهذه المهام كخبير يفسر قضايا الإسلام ومظاهر حياة المسلمين لحكومته الاستعمارية، ويعينها على فهم شعوبه وحكمها.

وعليه فكلما توسع الاستعمار وثبتت أقدامه وأحكم سيطرته على شعب من الشعوب الإسلامية كلما زاد اعتماده على الاستشراق كمؤسسة تابعة له تسانده وتدعمه في إدارة تلك الشعوب وتسهل له إخضاعها، وقد أكد هذا الأداء الوظيفي للاستشراق وضرورته للاستعمار المستشرق الهولندي ((كريستان سنوك هورخرونيه C. Snouck hurgronije))في قوله: ((إن الشريعة الإسلامية موضوع مهم للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسباب تجريدية(نظرية) متعلقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن كذلك لأهداف عملية: وذلك أنه كلما توثقت العلاقات بين أوروبا والشرق الإسلامي (العالم الإسلامي)، وكلما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية ـــ

---

1 - مختارات من كتابات: سنوك هورخرونيه(نشرها بوسكي وشاخت مؤسسة بريل في ليدن 1957). ص: 276.

كلما زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوربيين لنتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية))[1].

ولقد كان دور رائد للدراسات الاستشراقية وللمستشرقين قبل الاستعمار وأثناءه وما بعد الاستعمار.

أولا: دور الاستشراق قبل الاستعمار الفرنسي على الجزائر:

لقد مهدت فرنسا لاحتلالها للجزائر سنة 1830م بفترة دراسات سبقت ذلك الاحتلال بنحو عشرين عاما، تحولت فيها من مجرد دراسة ((حفريات)) و((آثار)) لعالم اثري قديم إلى دراسة ((عقلانية)) منظمة، ومن ثم تطورت فكرة ((علماء الحملة))؛ أي طبقة المفكرين التي دأب الاستعمار الفرنسي يصحبها في شن حملاته على البلاد الإسلامية وغيرها من المستعمرات كما يتجلى هذا المشهد في حملة نابليون على مصر سنة 1798م، وتطورت إلى((علماء المستشرقين)) وذلك على يد المستشرق الفرنسي((سلفستر دي ساسي)) الذي سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول، حتى صارت فرنسا رائدة الاستشراق في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ففي سنة 1807م طلب نابليون من الكولونيل (بوتان) المهندس العسكري القيام بسياحة استكشافية للجزائر، فجاء هذا المهندس الجاسوس إلى الجزائر سنة 1808م وتعرف على الأسر اليهودية وعلى الأخص أسرة ابن زاحوط التي

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي . دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1998.جزء:6. ص:9.

أعانته على استكشاف الجزائر أرضاً وشعباً وثقافة، وتختلق فرنسا قصة المروحة سنة 1828م ويكون الاستعمار الذي طالما حلمت به فرنسا.

ولقد شكلت أعمال وكتابات كل من: ديفونتين، وبيسونيل، وفانتوردي بارادي النواة الأولى لدور الاستشراق الفرنسي الذي مهد للحملة الفرنسية على الجزائر، وقد شكلت أيضا أعمال المستشرقين الأوربيين والأمريكيين مرجعا مهما لهذه الطلائع الأولى من المستشرقين الفرنسيين وخاصة عندما تأزمت العلاقات بين الجزائر وفرنسا عام 1827م ودخلت العلاقات بينهما مرحلة جديدة إذ دخل فيها تفكير القادة الفرنسيين في الحملة على الجزائر مرحلة الحسم والجد، فاستعانت تلك الطلائع بما كتبه غيرهم من المستشرقين أصحاب ملتهم فترجموا ما كتبه هؤلاء عن الجزائر والجزائريين وخاصة مدونات الرحالة الغربيين الذين وفدوا إلى الجزائر ورصدوا مظاهر الحياة وخصائص المجتمع وأنماط تفكير الجماهير وعاداتهم ونظم علاقاتهم ككتابات الرحالة الإنجليزي توماس شو ((رحلة في ولاية الجزائر)) وكتابات الإيطالي فيليبو بنانتي ((رحلة إلى سواحل البرابرة))، وكذلك كتابات رنودو وما كتبه بيير دان في وصفه لولاية الجزائر ومدنها ومساجدها ومدارسها وموانئها وجبالها وأنهارها وبحيراتها وجوها ومناخها وخصوبة أراضيها ومنتجاتها الزراعية وقدم لها بخلاصة عن تاريخ الجزائر عامة وخاصة القل وبجاية ووعنابة وجيجل وقسنطينة والجزائر وما نقله الدكتور شو والقنصل شيلروالأديب بانتي[1].

---

1 - أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1855/1830. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989. ص:9.

ولقد وفرت كتابات هؤلاء المستشرقين الرحالة الأوربيين ذرائع للأوربيين للاعتداءات المتكررة على الجزائر؛ إذ أسهب هؤلاء في وصف أوضاع العبيد من الأسرى وصفا مشوها[1].

ولما أدرك القادة الفرنسيون عظم هذا الدور الذي يمكن أن تلعبه طوائف المستشرقين، أسسوا مدارس تقوم على هذا التوجه وتكون هذه الطلائع ولعل من أبرز هذه المؤسسات مدرسة اللغات الشرقية بباريس والتي تزعم إدارتا والإشراف المستشرق سلفستر دي ساسي زعيم الاستشراق الفرنسي بلا منازع في ذلك الوقت ويعود إليه الفضل في تخرج الدفعات الأولى للاستشراق والإشراف على تكوين الضباط الذين قادوا الحملة العسكرية على الجزائر، وقد أنفق نصف قرن من عمره في خدمة الاستشراق كما عمل خبيرا ومستشارا في وزارة الخارجية قرابة ست سنوات بدون أجر يعود إليه وزير الخارجية ووزير الحربية يستشيرانه في كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي، كما كان يترجم نشرات الجيش وبيانات الحاكم العام الفرنسي نابليون.

ثانيا: دور الاستشراق في مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر:

لقد رافقت ثلة من المستشرقين الفرنسيين والأوربيين الدارسين المتخصصين في قضايا الشرق أو في الشمال الإفريقي الحملة الفرنسية على الجزائر إلى جوار طوائف المستشرقين الفنانين الرومانسيين. بيد أن دور هؤلاء أثناء الحملة يتجلى فيما يلي:

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق. ص:10.

أولاـــ دور المترجمين والمستشارين:

فنجد أن البيان الذي وزع على الأعيان الجزائريين عشية الحملة باللغة العربية قد ترجمه أبو الاستشراق سلفستر دي ساسي السالف الذكر، وإثر الاحتلال وجه تلاميذه من المستشرقين النابهين للاهتمام بالدراسات العربية في الجزائر[1]، وكان على رأسهم تلميذه لويس برينييه وتوجهت تلك الزمرة إلى الدرس والبحث في لهجات الجزائريين وتعليم الجند والقادة السياسيين والإداريين تلك اللهجات على اختلافها والعامية ليتسنى التعامل مع الأهالي بيسر وسهولة.

وبالرغم من أن دي ساسي لم يزر الجزائر؛ إلا أنه كان عينا ترعى تلاميذه هناك، وقد أشار قبل وفاته سنة 1838م؛ ليكون تلميذه برينييه رئيسا لكرسي اللغة العربية الذي أنشئ بالجزائر غداة الحملة، ليتولى تعليم الجيش والقادة العسكريين والمستوطنين من الفرنسيين والأوربيين على حد سواء، وعلى إثر نجاح الحملة باحتلال مدينة الجزائر، ارتأى للإدارة الاستعمارية الجديدة أنها في حاجة إلى مترجمين لتذليل الصعاب في الاتصال بالأهالي وإقناعهم بضرورة الاستسلام والتعاون مع السياسة الاستعمارية بدعوى أنها تريد مصالحهم، ولقد قام العديد من المستشرقين بهذه المهمة وشكلوا واسطة بين الإدارة الفرنسية والسلطة السياسية والعسكرية وبين السكان الجزائريين الأصليين كما استعانت بطوائف اليهود (الجزائريين) ذوي التجربة بالترجمة بين المسؤولين الجزائريين والأجانب قبل الحملة.

---

1 - عرفان عبد الحميد: محاضرات في مناهج المستشرقين. ص: 63.

وازداد نفوذ الإدارة الاستعمارية بتوسع سيطرتها على كثير من المناطق والمدن، وازدادت معها حاجتها إلى فريق أخر من المترجمين والخبراء، فأمدتها مدرسة دي ساسي للغات الشرقية بباريس بقوافل من المستشرقين والضباط والعسكريين الذين تعلموا اللغة العربية ولهجات المجتمع الجزائري في تلك المدرسة والتحقوا بالجزائر، و لم يكن يتحرك قادة الجيش إلا وكان دليلهم هؤلاء الخبراء والمترجمين، وأنشئ مكاتب لهذا الغرض دعيت (المكتب العربي) يتولى إدارته العسكريون المستعربون في المدن والقرى التي تم لهم إخضاعها لسيطرتهم، فنجد المستشرق **بوسيه**.أ: Beaussier. A (1873/1821)، الذي قضى زمنا طويلا في الجزائر، أعد خلال إقامته بالجزائر المعجم العلمي العربي الفرنسي. وقد جمع فيه التعابير اللغوية المستعملة في لهجات شمالي أفريقيا.

ووجدوا أنفسهم محوجين إلى معرفة طبقات المجتمع الجزائري وعاداته وتقاليده ولهجاته وتراثه وأساليب معيشته، وحيال ذلك فقد أدركوا أنهم مندوبون لمهمة أخرى وهي جمع المصادر التي ترصد تلك المظاهر من المخطوطات وترجمتها وإعداد دراسات تعنى بذلك.[1].

ثانيا ــ دور المستشرقين المعرفي والدراسي:

لقد كان للمستشرقين الذين وفدوا إلى الجزائر رفقة الحملة أو فيما بعد؛ دور كبير في تزويد الإدارة الاستعمارية بالمعارف والمعلومات الكاملة عن طبقات الشعب الجزائري من خلال إعداد دراسات أنتروبولوجية وجمع أصناف المخطوطات وترجمتها إلى اللغة الفرنسية، وكان ارتباط الاستشراق بإدارة

---

1 ــ نجيب العقيقي: المستشرقون . الجزء:1. ص: 189.

الاحتلال جليا منذ البداية، إذ انطلقت الإدارة العسكرية والإدارة المدنية الاستعمارية إثر نجاح الحملة في إخضاع مدينة الجزائر لسيطرتها بخبرائها وفنانيها ومترجميها من المستشرقين الذين رافقوا الحملة أو وفدوا لاحقا وانطلق كل فريق من هؤلاء في مجال عمله في معرفة حياة الجزائر العربية الإسلامية، وبدأت آلية الإدارة تتحرك في كل اتجاه وقع تحت سيطرتها، بيد أنها كلما احتيجت إلى فريق آخر من هؤلاء المستشرقين كمترجمين في البداية أو خبراء أنتروبولوجيين أمدتها المدرسة الاستشراقية للغات الشرقية بباريس ، التي باتت الرافد الأساسي لدعم الحركة الاستعمارية ومكاتبها العربية في الجزائر وغيرها بالمترجمين والمستشارين والمعلمين للجند والمستوطنين طرق وأساليب التعامل من الأهالي الجزائريين على هدي من المعارف والمعلومات التي يصل إليها هؤلاء الخبراء المستشرقين.

ثالثا ــ دور الاستشراق في مجال التعليم:

لقد لعب المستشرقون دورا رائدا على مستوى التعليم إذ اعتنى كثير من المستشرقين الفرنسيين وغيرهم من المدارس الاستشراقية الغربية بتعليم اللغة العربية المهجنة بالعامية واللهجات المحلية لدى الطوائف الممثلة للمجتمع الجزائري يقول فيرون: ((إن الفرنسيين قد فهموا مدى أهمية اللغة العربية وأنها واسعة الانتشار بين الأهالي ورغم عدم مبالات الفرنسيين باللغات الأجنبية فقد اضطروا إلى دراسة العربية الدارجة كما أن البعض قد درس المكتوبة أيضا))[1]، أي الفصحى؛ وذلك لتلبية:

---

1 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. جزء:6. دار الغرب الإسلامي.ص: 167.

أولا: حاجة الإدارة الفرنسية لتذليل الصعاب والعقبات في تعاملها مع الأهالي الجزائريين.

ثانيا: لتلبية حاجة المستوطنين الأوربيين في استغلال اليد العاملة الرخيصة وتبديد الحواجز النفسية بينهم وبين الأهالي على اختلاف المستويات والطبقات والفئات.

ثالثا: إبراز اللغة العربية كوسيلة حضارية ذات رمزية لهوية مستقلة وكيان اجتماعي متميز عن هوية المستعمر وإن تقنع بأساليب ماكرة لترويض الشعوب المستعمَرة.إبرازها ـــ اللغة العربيةـــ في صور مشينة سلبية.

كما كان لهؤلاء رسالة إضافية وهي العمل على إبراز الهوية الحضارية الفرنسية خاصة والغربية عامة وإشاعتها على أنها قدوة لكل إنسان بما تتوشى به من المبادئ الخادعة والسمات الموهمة للشعوب المغلوبة كما يشخص ذلك المستشرق برنار لويس في قوله: ((إن ما تعودنا عليه في الغرب هو أن يزداد تمسكنا بمثلنا الغربية كلما ازداد اتجاه العرب والشرقيين إلينا، وذلك بجعل أنفسنا مثالا للفضيلة والتقدم الحضاري، فإذا تشبه الشرقيون بنا فذلك جيد والعكس يعد عندنا شرا، فالتقدم هو في محاكاتنا، والتقهقر والسقوط هو هو في عدم التشبه بنا)) [1]

---

1 - برنار لويس: الإسلام والغرب. ترجمة: قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد. دار الرشيد. بيروت. ط1. 1994. ص: 58.

فعلى غرار ذلك أسندت الحكومة الاستعمارية الفرنسية وأدارتها مهمة تدريس اللغة العربية في المدارس الخاضعة تحت سلطتها إلى مستشرقين وفدوا من فرنسا أو من نواحي أوروبا عامة.

فنجد على سبيل المثال لا الحصر:

ديجا. ج: (1894/1824) درس على يد رينو في مدرسة اللغات الشرقية، وعين أستاذا بها للغة العربية وبعض فروع آدابها، وقد أوفدته الحكومة الفرنسية الاستعمارية إلى الجزائر، من أبرز نشاطاته بالجزائر إضافة إلى تعليم اللغة العربية، اعتنى بالتاريخ العام لبلاد المغرب العربي الإسلامي، ترجم خلال إقامته بالجزائر أيام الاستعمار إلى الفرنسية ((تنبيه الغافل وذكرى العاقل)) للأمير عبد القادر رحمه الله تعالى. كما أعد مصنفا حول عرب الأندلس (إسبانيا) ورحلتهم عبر شمال أفريقيا فرارا من بطش الصليبيين الذين أجلوهم عن جنوب غرب أوروبا.

هوداس. و: ((1919/1840)) انتدبته إدارة حكومته الاستعمارية بعد أن تخرج في اللغات الشرقية من معهد الدراسات الشرقية بباريس ـــ انتدبته ـــ مديرا لمدرسة وهران حيث درس اللغة العربية واللهجات المحلية، ثم عمل مفتشا عاما للتعليم، وصنف خلال فترة إقامته مجموعة من المصنفات والأبحاث والكتابات عن الإسلام ومظاهره وتبسيط اللغة العربية للمستوطنين والضباط والإداريين بالحكومة الاستعمارية منها: ((تيسير العربية على الفرنسيين))، و((العقيدة الصغرى)) الذي ضمنه أراء الشيخ السنوسي (1897) وقد أعانه عليه المستشرق فوربيجه، كما أصدر مصنفا في ((تاريخ الباشوات العثمانيين في

الجزائر من سنة 1515إلى سنة 1745)) ونشر في حلقات ضمن المجلة الآسيوية الاستشراقية عام 1922 [1].

فايسيت: قدم إلى الجزائر مبكرا وتعلم العربية واشتغل في حقل التعليم ثم عينا مديرا لمدرسة عربية فرنسية بقسنطينة وهو نوع من المدارس أنشأته فرنسا بهدف بث الثقافة الفرنسية عن طريق العربية الدارجة[2].

لويس جاك بريسنيير: (1869/1814) أحد تلامذة رائد الاستشراق الفرنسي سلفستر دي ساسي والذي عمل في الأمر في رصف حروف الطباعة، ثم تابع من بعد دراسته، فأوفدته الإدارة الاستعمارية باقتراح من أستاذه دي ساسي إلى الجزائر في عام 1835 حيث طبق فيها طريقته لتعليم اللغة العربية، واستطاع أن يعد جحفلا من المترجمين العسكريين الذين لعبوا دورا فاعلا في فترة الاستعمار.

برنييه لوي جاك: (1869/1814).

كان مجرد عامل مطبعة لصف الحروف، لما بدأ يحظر دروس اللغات الشرقية في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس ، فأبدى كان مجرد عامل مطبعة لصف الحروف استعدادا خارقا لتعلم لغات الشرق الإسلامي ، مما جعله يجذب انتباه أستاذه سيلفستردي ساسي، فأوص الحكومة الفرنسية – عند احتلال

---

1 ــ نجيب العقيقي : المستشرقون. جزء :1. : ص: 200 وما بعدها.

2 - نفس المرجع .ص:52 وما بعدها

فرنسا الجزائر - بتكليفه (برنييه) بإنشاء كرسي لتعليم العربية في الجزائر للفرنسيين في 1836 فقام برنييه بهذه المهمة خير قيام طوال ثلاث وثلاثين سنة، وكون مجموعة من المترجمين الفرنسيين الذين يحسنون اللغة العربية، وعمل هؤلاء في خدمة الإدارة الفرنسية الكاملة في الجزائر.

وصدرت له مجموعة من الإصدارات منها:

ـ دروس عملية ونظرية في اللغة العربية ـ طبع في الجزائر سنة 1855 cours pratique

ـ مختارات عربية أولية ـ 1852 Anthologie Arabe élémentaire

ـ التعليم العربي في الجزائر.

ـ منتخبات عربية 1857 chrésomathie Arabe

ـ نشرة للنص العربي لكتاب (الأجرومية) في النحو مع ترجمة فرنسية 1866.

ـ المبادئ الأولية للغة العربية 1867

ـ مبادئ الخط العربي 1855[1].

بورجاد فرانسوا:(1806-1866).

انتقل إلى الجزائر من باريس بعد 8 سنوات من الحملة الفرنسية على الجزائر 1838 ثم انتقل إلى تونس وأنشأ بها مطبعة ولعب دورا في تزويد المدارس الفرنسية بالجزائر بالمطبوعات والكتب المدرسية

---

1 ـ نجيب العقيقي: المستشرقون. الجزء:1.ص: 187.

بل. ألفريد أوكتاف: (1873-1945).

كان مديرا لمدرسة تلمسان، وصنف كتابا بعنوان:((نظرة في الإسلام عند قبائل البربر)) بالفرنسية كان له أثر كبير على بعض النخبويين البربر في الجزائر والمغرب.

جاك بيرك (1910- أظنه توفي في 1995)

ولد بالجزائر تابع دراساته الأدبية وتعلم العربية بالجزائر إذ كان والده إطارا بالإدارة الاستعمارية ،سافر إلى فرنسا لاستكمال دراساته ، ثم عاد إلى الجزائر لإتقان اللغة العربية .من أهم إصداراته : ((القرآن)) محاولة لترجمته le 1991 Qoran essai de traduction_ paris وصدرت له طبعة منقحة 1995 و عين مراقبا مدنيا في الإدارة الاستعمارية.

بيلا ، شارل :(1914- 1992)

ولد بقسنطينة بالجزائر وحصل على دبلوم الأجرجاسيون في اللغة الشرقية العربية، عام 1946ودكتوراه لأداب من جامعة باريس، (1950) عمل أستاذا بمدرسة اللغات الشرقية من (1951إلى 1956) ركز فيها على العامية ولهجاتها في الجزائر وهو من الذين دافعوا على تدريس العربية العامة بالمدارس الفرنسية بالجزائر وكان مديرا للطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) دوتيه أدمون (1867)[1].

---

1 ــ عبد الحميد صالح حمدان: طبقات المستشرقين. مكتبة مدبولي. ص: 108.

هوار كليمان:(1854ـ1927).

ولد بباريس عام 1927. وتخرج من مدرسة اللغات الشرقية، والتحق بالكي دورسيه وعمل ترجمانا بوزارة الخارجية الفرنسية في دمشق ثم الآستانة كما مثل الخارجية الفرنسية في المؤتمر الاستشراقي الذي عقد بالجزائر عام 1905م. كما كان له برنامجا إذاعيا (حول العالم الإسلامي) بالقناة الدولية الفرنسية واشتغل بالتدريس كأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية ومدير دراسات بمدرسة الدراسات العليا. وكان عضوا في عدة مجامع علمية ورئيسا لمجمع النقوش والآداب الجميلة في باريس 1919م.

بلانته إ: .blantet E. عمل بالوزارة الخارجية وكان يعد المراسلات بين الولاة في الجزائر والإدارة الفرنسية ، ثم جمعها ونشرها في مصنف 1889[1].

شربونو.ج: (1882/1813).

تعلم اللغة العربية بمدرسة دي ساسي وكوسن دي برسفال، ثم وفد إلى الجزائر حيث كلف بالتدريس بالمدرسة الفرنسية بقسنطينة وعمل على تنظيمها

دلفين.ج: (ت1919م):Delphin.G.

انتدبته الحكومة الفرنسية الاستعمارية مديرا لمدرسة وهران وتولى التدريس بها للغة العربية واللهجات الجزائرية . أعد مجموعة من الإصدارات منها: الميسر

---

1 ــ نجيب العقيقي: المستشرقون. الجزء: 1. ص: 183.

في اللغة العربية لفرنسيين المقيمين بالجزائر ، وتاريخ الباشوات العثمانيين بالجزائر، وكتاب العقيدة الصغرى المشتمل على آراء السنوسي العقدية .

ماسكراي: (1894/1843).Masqueray.

عينا مديرا للمدرسة العليا للآداب التي تحولت فيما بعد إلى كلية الآداب عام 1881م أعد خلال فترة إقامته بالجزائر التقاليد الشعبية، وبني الميزاب في جزائر المغرب ، وكيف تألفت البلدان عند قبائل البربر في بلاد الأطلس[1].

رابعا ــ المستشرق في دور الجاسوس :

كما أن الكثير من المستشرقين لعبوا دور الجواسيس الذين يوفدون المعلومات حول القبائل وزعماؤها وعلاقات ببعضها كما قدموا معلومات حول الطوائف الدينية والسياسية في المجتمع الجزائري.

فنجد المارشال الفرنسي فالي قد كلف ليون روش المستشرق الرحالة الذي وفد إلى الجزائر عام 1832 بعدة مهام جاسوسية في مدينة القليعة لمراقبة مسلمي الحجوط الذين يعملون على نشر البلبلة والفوضى في نواحي الجزائر في نظر المستعمر كما شارك هو نفسه في حملات عسكرية مع المارشال فالي سنة 1840، ولقد أشار على الجنرال بيجو الذي أثنى عليه في تقريره إلى وزير الحربية بعد أن تم له الانتصار في حملته على مدينتي تاقدامت ومعسكر عام 1841، باستعمال سلاح الفتوى الدينية لتذليل كثير من العقبات فأرشده إلى أن قوة الجزائريين المسلمين تكمن في تمسكهم بدينهم، وعليه فإن إحراز فتوى من العلماء الكبار المقيمين في تونس تحرم على مسلمي الجزائر محاربة المسيحيين

---

1 ــ نجيب العقيقي: المستشرقون. الجزء: 1. ص: 2002.

وخاصة وأن الأمير عبد القادر أشار لما يؤيد هذا الزعم في ظاهر كلامه أثناء توقيع اتفاقية تافنة وذلك في قوله: ((إنكم تتحدثون عن دينكم.. لو كنتم مسيحيين...لكنتم من أحسن أصدقائنا، إذ أن القرآن....يأمرنا بالسلم....واحترام دين عيسى بن مريم...))[1].

وعلى غرار ذلك فقد وقع اختيار الجنرال بيجو على روش للقيام بهذه المهمة كونه يتقن اللغة العربية ومطلع على عادات وتقاليد الجزائريين المسلمين وكانت له صلات قوية ومعارف كثيرة مع كبار شيوخ القبائل وقد حصل على ثقة بعضهم لما كان يتظاهر به من مسوح الإسلام.

وقد لعب روش دورا رئيسا في إقناع بعض العائلات بأن دينهم يحرم عليهم محاربة أهل الكتاب، وأن لا يرموا بأنفسهم إلى التهلكة بقتالهم عدوا جسورا لا قبل لهم به عدة وعددا.

وقد استطاع روش بدهائه أن يستميل بعض الطرق الصوفية، كالتجانية؛ إذ أرسل إلى التجاني ليشرح هدف هذه الفتوى والمهمة التي كلف بها، وطلب منه أن يعمل على جمع كلمة رؤساء طريقة الطيبية، وخليفة الزيبان، وأولاد سيدي الشيخ، لإحراز دعمهم، وقد استبشر التجاني بهذه العملية التي كان يعتقد أنها ستجنب أتباعه من المجازفة بأرواحهم في حرب خاسرة ضد الفرنسيين التي يحرض عليها الأمير عبد القادر، معتقدا أن هذا الموقف الذي يندبهم إليه روش سيوفر لهم الهدوء والأمن والأمان. وقد استجاب التجاني فاستدعى مقدمي الطرق المحالفة له واتفق معهم على أن يطلب كل منهم من رئيس طريقته اختيار

---

1 - يوسف مناصرية: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب.(1832 ــ 1847). ص: 37وما بعدها. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.1990.

ممثل له لمرافقة روش إلى تونس لنوال ثقة علمائها فيلبوا طلبه ويحقق مراده، واستطاع بذلك أن يوقع بين الأمير ويحرض ضده بعض القبائل، مما تطلب من الأمير جهدا كبيرا لإصلاح مواقفها.[1]

1 - يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ــ الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين. ترجمة: عمر لطفي العالم. دار المدار الإسلامي. ط2. 2001.ص: 152.